الظاهرة العشوائية والتفكير الاستراتيجي: مصر نموذجًا

جاء هذا اللقاء لملتقى الحضارة –ضمن سلسلة لقاءات عام 2009– لتحقيق هدف أساسي هو تكوين رؤية منهجية ومشتركة بين المهتمين بحال الأمة.

فإن كان تركيز اللقاءين السابقين على غزة، والعدوان السافر عليها، باعتبارها في قلب الأمة وجوهر الاهتمام بها. فإن هذا اللقاء ركز على دائرة أخرى من دوائر الانتماء هي الدائرة الوطنية؛ حيث اهتم فيه الدكتور سيف الدين عبد الفتاح بتحليل وتفسير الظاهرة السياسية في مصر، التي تشوبها حالة من العشوائية المفرطة، ليس فقط على مستوى السياسات الحكومية، وإنما أيضًا على مستوى ردود أفعال المواطنين.

وذلك باعتبار مصر هي القاطرة التي تقود أي نهوض في الأمة، وبالمثل فإنها أيضًا تقود أي فشل أو خيبة فيها. فاختيار النموذج المصري ليس للتهويل من مكانة مصر، وإنما لاعتبار المكان في صناعة المكانة وتحقيق المكنة.

وبدأ د. سيف حديثة –في هذا الإطار– بمقدمتين؛ **أولهما** حول أحد المصادر المهمة، والمهمَلة في دراسة الظاهرة السياسية، وهو الشعر السياسي. ذلك أن الشاعر يملك كثافة في العبارات، وقدرة على إبراز المعنى، حتى عندما يكتب مقالة فإنه يكتب بإحساس الشاعر والأديب. لذا، لابد أن يتخذ الباحث من كتابات الشعراء دلالة على بعض الأفكار.

وفي هذا الإطار، أشار إلى مقالة كتبها فاروق جويدة في أكتوبر 2006 بعنوان: "عشوائيات"؛ رصد فيها بعض مظاهر العشوائية في المجتمع المصري. فالمساكن العشوائية هي أحد تلك المظاهر، وليست المظهر الوحيد؛ حيث وصل عدد سكان العشوائيات في مصر إلى (13) مليون، منهم ما بين 2– 2.5 مليون يسكنون المقابر. فسكان العشوائيات يعكسون بدورهم حالة من "المواطنة العشوائية".

ومن مظاهر العشوائية المتعلقة بالإعلام صناعة "مواطن الفُرجة"، الذي ينتُج عن حصر الظاهرة السياسية فيما تقدمه –بل تفرضه– وسائل الإعلام على المواطن من الحقيقة.

مظهر ثالث من مظاهر العشوائية ما يمكن أن يسمى "الظواهر الوهمية"؛ حيث كتب فاروق جويدة مقالاً آخر في فبراير 2009 عن الجامعات الإقليمية في مصر، مبيِّنًا كيف تخلو تلك الجامعات من الأساتذة، والطلاب،... فتتحول إلى ظاهرة وهمية. فقد دخلنا جيلاً جديدًا من الظواهر يسمى "جيل الظواهر الوهمية".

أما **المقدمة الثانية** التي طرحها د. سيف، فكانت حول إدارة الظاهرة العشوائية وتنظيمها، والتي تتم من قبل غير المتخصص، بل قد يكون غير ذي شأن، فتصبح إدارة "عشوائية" لظاهرة عشوائية.

وبعد المقدمتين السابقتين، بدأ د. سيف بالحديث عن الأبعاد المختلفة للظاهرة السياسية من خلال المحاور التالية:

- تركيب الظاهرة والعشوائية.
- أسباب الظاهرة العشوائية.
- منتوجات الظاهرة العشوائية.

أولاً– تركيب الظاهرة والعشوائية:

يشير مفهوم "الظاهرة" إلى حالة من التراكم، والشمول النسبي، والانتشار، والاستمرار، والتكرار، وإنتاج الآثار. ويشير مفهوم "العشوائية" –من ناحية أخرى– إلى حالة من الفوضى والاختلال. الأمر الذي يعني وجود إشكالية يمثلها تحول العشوائية إلى ظاهرة.

حيث تحولت العشوائية إلى حالة مجتمعية، تحولت من هامش الظاهرة إلى متن الظاهرة، والأخطر أنها بدأت تولّد نظامًا. ارتبط ذلك بتحول دور السلطة، حيث انسحبت السلطة حيث يجب أن توجد، ووجدت حيث يجب أن تنسحب.

ثانيًا– أسباب الظاهرة العشوائية:

تبرز مجموعة من الأسباب والعوامل التي أدت إلى إحكام وتحكم العشوائية في كثير من ظواهر المجتمع، رغم نشأتها خارج إطار الشرعية. من أهم تلك الأسباب:

- اللامبالاة؛ حيث يمكن القول أن "حزب اللامبالاة" هو الحزب الحاكم في مصر.
- التبرير واليأس: فالعشوائية تدفع للاستسلام للأمر الواقع؛ حيث تسود في المجتمع المصري عبارات من مثل "دع الخلق للخالق"، "نحن لن نصلح الكون"،...
- المصلحية التافهة، والأنانية المفرطة.
- الإمعّية أو "مجتمع الإمعّة".
- حجم الظاهرة؛ ما هو ظاهر منها وما هو خفي. فظواهرنا ليست هي الظاهرة، بل هناك الكثير منها خفي ومسكوت عنه.
- الحالة الاستبدادية؛ والتي تعمل على بقاء الظواهر كـ"ذرات متناثرة" ومشتتة؛ فـ"الفردية" أو "الفردانية" داخل المجتمع صناعة استبدادية كما قال الحكيم البشري: "يظل الحاكم فردًا ما دام الناس أفرادًا".
- يترافق مع تلك الحالة الاستبدادية حالة من صناعة "الرضا الكاذب"، انطلاقًا من الرؤية الفرعونية "إن أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد".

ثالثًا– منتوجات الظاهرة العشوائية:

تنتج الظاهرة العشوائية العديد من الآثار السلبية داخل المجتمع، والتي تزيد من توغل العشوائية وانتشارها في المجتمع. من أهم تلك الآثار:

- حالة "التمثيل والفرجة"؛ فالعشوائية تنتج حالة من اللامبالاة لدى المواطنين"، أو ما أسماه تيموثي ميشيل في كتابه (استعمار مصر) "نظرية المعرض".
- استبداد وتوغل السلطة داخل المجتمع؛ فالسلطة توزع الكلام، وأيضًا توزع السكوت (توزيع الأدوار وتأميم المواطنة).

- تضييق مفهوم الأمن من جهة ليصبح قاصرًا على "أمن الدولة" ثم "أمن السلطة"، ومن جهة أخرى تحويل كل الملفات إلى ملفات أمنية (بذلك المعنى الضيق).
- الحالة الفسادية؛ فالاستبداد يستدعي الفساد وعلى العكس صار الكشف عن الفساد فسادًا.

رابعًا– نقاط منهاجية:

اختتم د. سيف اللقاء ببعض الملاحظات المنهاجية المتعلقة بالظاهرة العشوائية

- الظاهرة العشوائية، تبدأ بعشوائية الحدوث قد ينتبه لها البعض في البداية أو لا ينتبهون ثم عشوائية التكوين، وعشوائية التراكم.
- تنتج الظاهرة العشوائية حالة من فوضى التفاعلات، تحيطها بيئة من التغافل.
- ترتبط العشوائية بغياب عناصر التنظيم، فالخطاب السياسي دائمًا "يعوِّم" الظواهر.
- ترتبط العشوائية أيضًا بتسييس معظم الظواهر.
- التعامل مع الظاهرة "العشوائية" هو تعامل عشوائي أيضًا، كثيرًا ما يقوم على أساس القهر والقسر (عدوي الظواهر العشوائية).
- "تسميم الظاهرة" تغيير أولويات الظاهرة.
- ضرورة عدم التهوين من الظاهرة العشوائية وشأنها.
- عشوائية رصد الظاهرة، تفسيرها وتحليلها، النظر إليها.
- انتشار معالجة الظواهر بالندوات "نْصب للندوة" و"وهمْ الظواهر".
- النظام يظهر عندما تحقق له الظاهرة مصلحة (كأس أفريقيا)، ويختفي ويتوارى في غيرها عن الظواهر السلبية (عبَّارة الموت).
- هناك عدة مداخل لمعالجة الظاهرة العشوائية؛ أهمها تمسك الفئة التي تؤمن بالإصلاح بالفعل والإصلاح.